

## قراءة في إشكالية الإسلام والحضارة عند المفكر النهضةي مالك بن نبي

### A reading of the problematic of Islam and civilization according to the Renaissance thinker Malek Bennabi

حسيبة ملاس\* ، (جامعة الشاذلي بن جديد – الطارف)، mellas-hassiba@univ-eltarf.dz

2022-10-05	تاريخ القبول	2021-03-09	تاريخ الاستلام
------------	--------------	------------	----------------

#### ملخص

يعتبر مالك بن نبي من أهم أعمدة الفكر العربي والإسلامي، وقد كانت أفكاره السابقة لعهدنا بمثابة القاعدة التي بني عليها التنظير الفكري للنهضة الإسلامية في العصر الحديث، حيث مثلت قضية الحضارة محورا أساسيا في أعماله الفكرية؛ وشكل مفهومه عنها وعن علاقة الدين بها موضوع جدال بينه وبين العديد من المفكرين. وتتناول هذه الورقة قراءة في إشكالية الإسلام والحضارة عند هذا المفكر النهضةي، عبر تحليل ومناقشة رؤيته للدور الذي أداه الدين الإسلامي في صنع حضارة المسلمين، وذلك محاولة لإيجاد إجابات على التساؤلات التالية: ما هو مفهوم ابن نبي عن الحضارة وعن الدور الذي أداه الإسلام في صنع حضارة المسلمين؟ وما هي عوامل تخلف المسلمين في نظره؟ وما هو السبيل إلى نهضة العالم الإسلامي من جديد؟

**الكلمات المفتاحية:** دين؛ نهضة؛ دورة حضارة؛ أفكار ميتة وأفكار مميتة؛ قابلية للاستعمار.

#### Abstract

Malek Bennabi is considered one of the most important Arab and Islamic thinkers. His previous ideas were the basis for the intellectual theory of the Islamic Renaissance in the modern era, where the issue of civilization was a central focus of his intellectual work; the subject is controversial among many thinkers. This paper discusses the problematic of Islam and civilization according to this Renaissance thinker, through analyzing and discussing his view on the role played by the Islamic religion in the making of the Muslim civilization, as an attempt to find answers to the following questions: What is the concept of Bennabi about civilization and the role played by Islam in the making of the Muslim civilization? What are the factors behind the failure of Muslims? What is the way to re-establish the Islamic world?

**Keywords:** Religion; renaissance; cycle of civilization; Dead Ideas and Deadly Ideas; Susceptibility to colonization.

تناولت الكثير من البحوث والدراسات وكذا المقاربات السوسولوجية والدينية العلاقة بين الإسلام والحضارة، وكثر الحديث ولمدى طويل عن الدور الذي يساهم به هذا الأخير في صنع حضارة الشعوب، واختلفت اتجاهات المفكرين والفلاسفة في هذا المجال، إلا أن العلامة مالك بن نبي كان السباق في تفسير أبعاد هذا الموضوع حيث أصبح المرجع الأول للكثير من الباحثين في محاولتهم لفهم الثنائية (إسلام - حضارة).

إذ يعد ابن نبي من أهم أعمدة الفكر العربي والإسلامي، حيث كانت أفكاره سابقة لعهدا، فشكلت بذلك قاعدة أساسية، تم من خلالها بناء التنظير الفكري للنهضة الإسلامية في العصر الحديث، وقد مثلت إشكالية الحضارة المحور الأساسي والبارز لأعماله الفكرية باعتبارها الإطار العام المنظم لكل العناصر التي تترجم في الواقع في صورة مشكلات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية...، فعبر عن ذلك بقوله "إن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن هي مشكلة الحضارة". (بوراس، 2013: 259)

وتناقش هذه الورقة البحثية مسألة الإسلام والحضارة انطلاقا من رؤية ابن نبي للدور الذي أداه هذا الأخير في صنع حضارة المسلمين؛ وفي تأسيسه لكيان حضاري عظيم كانت له تأثيراته المهمة على المسيرة الحضارية للبشرية، فهو لا يزال محتفظا ببذور تأسيسه حتى اليوم؛ رغم حالة التراجع التي تعيشها مجتمعاته متأثرا بظروف داخلية وخارجية أهمها تعرض البلدان العربية والإسلامية للاستعمار الذي توغل بقدر ما استدرجته فكرة القابلية للاستعمار التي تولدت حسب ابن نبي من الفجوة التي حدثت فيما بعد دولة الموحدين؛ بعد تراجع الحضارة الإسلامية وازدهار الحضارة الغربية المسيحية منذ القرن الرابع عشر.

فما هو مفهوم ابن نبي للحضارة وما دور الإسلام في صنع حضارة المسلمين؟  
وما هي عوامل تخلف المسلمين في نظره؟  
وما السبيل إلى نهضة العالم الإسلامي من جديد؟

## 1) دور الدين الإسلامي في بناء حضارة المسلمين

من القضايا الكبرى التي نالت اهتمام المفكر الجزائري مالك بن نبي والتي تطرق إليها في مؤلفاته المختلفة هي قضية الحضارة، فلطالما حلل وناقش هذا المفكر ذلك التيه الذي تعاني منه الحضارة الإنسانية بصفة عامة والإسلامية على وجه الخصوص، بل وقد حمل في فكره هموم التخلف الذي تعاني منه أمتنا الإسلامية، محاولا من خلال نظريته النهضوية التقدمية تشخيص العلل وتقديم الحلول المناسبة لإعادة بعث حضارة المسلمين، مستندا في ذلك إلى أطروحة أساسية بنى عليها نظريته عن شروط النهضة، والتي ناقشت مسألة الحضارة من خلال تحليلها إلى عناصرها المكونة لها.

حيث تتلخص أطروحة ابن نبي عن الحضارة في اعتبارها مزيجا لثلاثة عناصر هي: الإنسان والتراب والزمن، فأى حضارة بشرية في نظره لا يمكن لها أن تبنى إلا إذا حصل امتزاج بين الإنسان

والتراب والزمن، لكن هذه العناصر لا تتفاعل تلقائياً، بل يقتضي ذلك تدخل مركب ما يؤثر في مزج العلاقة بينها وهو الفكرة الدينية التي رافقت دائماً تركيب الحضارة على مرّ التاريخ.

فالدين إذاً هو العنصر المساعد على هذا الامتزاج، وهو يعد المركب الحضاري للعناصر الأساسية المنتجة للحضارة البشرية، وعلى هذا فإن الدين لا يدخل في المزيج الحضاري، ولكنه بتعاليمه يخلق ذلك المركب الذي يحقق المزيج بين العناصر الثلاثة، وهذه هي الحصلة التي يتجسد من خلالها دور الدين في بناء حضارة الشعوب، ويذهب ابن نبي إلى أبعد من ذلك حين يؤكد على القوة الروحية التي تنبعث من عقيدة التوحيد التي تتجلى أساساً في قدرة الدين على تنظيم الغرائز وإنتاج أشخاص قادرين على بناء حضارة. (المؤيد، د ت: <http://www.almoaiyad.com/mohadhrat/M-7.htm>)

أما دورة الحضارة في نظره فهي تبدأ حين تدخل التاريخ فكرة دينية معينة؛ وذلك من خلال مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تحملها والتي تتيح للمجتمع فرصة النهوض بأفراده ومساعدتهم، فينمو المجتمع ويزداد حضارة بازدياد فاعليتها، ويتراجع ويتحلل بصورة مضطربة مع نقص الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية، فتدخل بذلك الحضارة طور الانحطاط والانحلال باستعادة الطبيعة سيطرتها على المجتمع والفرد شيئاً فشيئاً، وتعود الأشياء كما كانت عليه من قبل، وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية بانحلال المجتمع وتنتهي بهذا دورة الحضارة (شاويش، 2007: 25-30)، وفي هذه المرحلة يصبح الإنسان كما عبر عنه ابن نبي قد تفسخ حضارياً، وسلبت منه الحضارة ليدخل في مرحلة جديدة أطلق عليها مسمى "ما بعد الحضارة". (ابن نبي، 1948/1986: 108)

فكل حضارة بشرية تنشأ من ولادة فكرة دينية تعمل على بناء أساسات المجتمع، وعلى تنظيم الطاقة الحيوية للأفراد، حيث تبعث فيهم الفاعلية والإرادة، من خلال تحريرهم من هيمنة الغرائز وإخضاعهم إلى هيمنة الروح، وفي هذه المرحلة تبلغ شبكة العلاقات الاجتماعية ذروتها. فما الحضارة إذاً إلا محصلة لفكرة جوهرية تطبع على مجتمع ما في مرحلة ما قبل التحضر، وتكون بمثابة الدفعة التي تدخله التاريخ (ابن نبي، 2016 ب: 41)، وهي المرحلة الأولى في دورة الحضارة أو وضع النهوض الذي يوازي في الحضارة الإسلامية مرحلة النبوة والخلافة الراشدة، ويؤرخ ابن نبي نهاية هذه المرحلة بمعركة صفين (ينظر التعليق رقم: 1)، في حين يؤرخ انتهاء المرحلة الثانية بسقوط دولة الموحدين في المغرب والأندلس، وأما ما بعدها فقد مثل الانحدار والتخلف. (العبد، 2006: 34) فقد أتى الدين الإسلامي بمجموعة من الأسس الأخلاقية والمادية من خلال الفكرة التي بزغت مع نزول الوحي على الرسول الكريم في غار حراء، والتي اختصرت رسالتها في كلمة "اقرأ"، فقد أزالته هذه الكلمة ظلمات الجاهلية وقضت على عزلة مجتمع كان منغلقة على نفسه؛ فأنحصر قبل الإسلام في حدود قبيلة معزولة عن كل ما هو حراك اجتماعي جسده حركات المد والجزر التاريخية للأمم المجاورة كالإمبراطورية البيزنطية والفارسية ومملكة الحبشة في الجنوب، فكانت بذلك هذه الفكرة بمثابة شريعة ومنهاج سار عليه المسلمون، وبرز من خلالها وظهر إلى الوجود مجتمع جديد متفاعل مع العالم ومع التاريخ، انبعث من خلال خلاصه من مخلفات مجتمع الجاهلية، ونما وتطور ببناء عالمه الثقافي المنفتح على تعاليم الدين الإسلامي.

فالفكرة الدافعة للإسلام التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً انتشر نورها في كل أنحاء العالم ليصل إلى الأقطار البعيدة موحدة الشعوب الإسلامية في ظل حضارة عظيمة استمرت حتى سقوط بغداد وسقوط غرناطة، وحتى بعد تراجع هذه الحضارة في زمن ما بعد الموحيدين ظلت هذه الفكرة الدافعة داعمة للمجتمعات الإسلامية سامحة لها بمقاومة العدوان الاستعماري إلى أن استعادت استقلالها. (ابن نبي، 2016ب: 39-48)

## 2) عوامل تخلف المسلمين عند مالك بن نبي

وبهذا فقد انقلبت أحوال الحضارة الإسلامية بعد أن كانت تقود البشرية إلى ما يزيد عن عشر قرون، وتراجع إنتاجها القيمي والحضاري، وما إن استفحل فيها الداء وتفاقمت أعراضه وانتشرت آثاره حتى سارع جموع المفكرين والأئمة والمصلحين إلى محاولة تشخيصه ساعين إلى إيجاد السبيل لخلاص الأمة مما حل بها، وهدم حضارة أنارت في يوم ما بلاد المسلمين من الأندلس غرباً إلى الصين شرقاً في عهد الدولة الأموية؛ في الوقت الذي كانت تعيش فيه أوروبا وبقية أقطار العالم في جهل وظلام حضاري.

تعددت الأطروحات الفكرية والمشاريع الإصلاحية لإرجاع الأمة الإسلامية لسابق عهدها، وتباينت جهود المفكرين والمنظرين بين الدعوة إلى تجديد الإسلام من جهة، وبين الإصلاح السياسي من جهة أخرى، أو الجمع بين المدرستين، إلا أن المشروع الحضاري الذي جاء به عملاق الفكر الإسلامي مالك بن نبي كان فريداً من نوعه، سواء من حيث الطرح والتشخيص، أو من حيث إيجاد العلاج، وقد حدد من خلاله أبعاد المشكلة وأبرز العناصر الأساسية للإصلاح، تاركاً وراءه منهجاً جديداً في بحث مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس وعلم الاجتماع، فشكّل بذلك فكره امتداداً طبيعياً لفكر ابن خلدون. (يوسف، 2017/11/11، 04:41، <http://www.minbarlibya.com/?p=6385>)

فقد اعتبر ابن نبي أن عوامل التعارض الداخلية في المجتمع الإسلامي بلغت ذروتها مع نهاية دولة الموحيدين، حيث فقدت العناصر الثلاثة للحضارة فاعليتها وأضحت عناصر خامدة ليس بينها صلة مبدعة، ومع مضي عصر الموحيدين دخل المسلمون ظلمة التاريخ، وأنتج إنسان ما بعد الحضارة الذي عبر عنه ابن نبي بقوله: " ثم يبدأ تاريخ الانحطاط بإنسان ما بعد الموحيدين ". (د ن، <http://www.aldjazeera.net/amp/knowledgegate/opi:12/24/2009>)

إن مصطلح " ما بعد الموحيدين " الذي تفرد به ابن نبي هو تحديد تاريخي لمرحلة أصبحت ذات مفهوم اجتماعي؛ تعبر عن تحول في مسار دورة الحضارة وخروجها من تاريخها، إذ يعد معيار الخروج بالنسبة له قابلية مساحتها لسيطرة استعمار أجنبي، وهذا ما تمثله المراحل الثلاث لكل حضارة: ما قبل الحضارة (Pré civilisation)، الحضارة (Civilisation)، وما بعد الحضارة (Post civilisation). ففي الوقت الذي اهتم فيه المؤرخون بدراسة المرحلتين الأولى والثانية وأهملا المرحلة الأخيرة التي تفقد فيها الحضارة وميضها؛ ركز ابن نبي اهتمامه على هذا المنعطف؛ وانطلق منه في أسلوبه النقدي لمسيرة العالم الإسلامي الذي لا يزال يحمل بذور التأسيس لعودة الحضارة الإسلامية مجدداً في أداء رسالتها التي اختارها الله لمستقبل الإنسانية. (مسقاوي، 2013: 309-310)

فالحضارة في فكر مالك بن نبي هي إنتاج بشري، وهذا يعني أن التخلف الذي يعيشه المسلمون ينبع في الأساس من داخلهم، ويعود إلى طبيعة تشكيل عقلية وشخصية الفرد المسلم وما ترسب فيها من المفردات السلبية للثقافة، وفي هذا الإطار فرق ابن نبي بين المجتمع الفعال والمجتمع غير الفعال، كما أجزم بأن فاعلية المجتمع تنطلق من فاعلية الفرد، ( السرجاني، 2014 / 06/26، <http://ar.islamway.net/article/33267/%D9%85%D8%A7%D9%84%D9%83>)، وبذلك فإن نظرة الإنسان لنفسه على أنه صانع التاريخ ومحركه هي التي تحقق فاعليته وفاعلية المجتمع - على اعتبار أن التاريخ هو حصيلة عملية وليس مقولات نظرية - ومن خلال هذا الطرح توصل إلى أن المشكلة الحقيقية للمسلم هو أنه لا يفكر ليعمل وإنما يفكر ليتكلم .

وقد تطرق ابن نبي إلى قضيتين أساسيتين كانتا وراء تخلف المسلمين عن ركب الحضارة؛ تتعلق الأولى بالأفكار التي تعوق النهضة الإسلامية وسماها بالأفكار الميتة والأفكار المميته، والثانية بالقابلية للاستعمار والاستعمار.

## 2-1) الأفكار الميتة والأفكار المميته

يرى ابن نبي أن الإرادة الحضارية هي طوع للفكرة، وأن انهيار هذه الإرادة عند المسلمين حتى أصبحوا غير قادرين على تقرير مصيرهم هو نتيجة حتمية لغياب الفكرة في عصر التلقين والتبعية الذي نعيش فيه، فالصراع الفكري تزداد شدته في البلاد المحكومة بشبكة من المفاهيم والمسلّمات التي يطرحها الغرب ويستخدمونها من أجل السيطرة على مجرى الأحداث، والوقوف في وجه أي نهضة فاعلة في عالمنا الإسلامي. (بن نبي، 2016 ب: 07)

فالمشكلة إذًا عند ابن نبي هي مشكلة أفكار لا مشكلة وسائل، والعالم الإسلامي منذ انحطاطه في عصر ما بعد الموحدين وهو يواجه نوعين من الأفكار تساهمان في تعميق التخلف وتقنان في وجه أي نهضة حضارية إسلامية على أسسها الأولى، ويتعلق الأمر هنا بالأفكار الميتة والأفكار المميته. وقد عبر عن ذلك في كتابه " وجهة العالم الإسلامي " بقوله: إن " ما نعانیه من اختلاط وفوضى في الميادين الفكرية والخلقية أو في ميادين السياسة، إنما هو نتيجة ذلك الخلط من الأفكار الميتة؛ تلك البقايا غير المصفاة، ومن الأفكار المستعارة التي يتعاضم خطرهما كلما انفصلت عن إطارها التاريخي والعقلي في أوروبا". (بن الحسن، 2016/03/10: <http://www.blogs.aljazeera.net/amp/blogs/2016/10/3/...>)

والأفكار الميتة في منظور ابن نبي هي التي تسكن العقول ولا تدفع حاملها إلى أي مجهود أو نشاط؛ فهي معلومات عقيمة متوارثة نتجت عن إرثنا الاجتماعي وتجاوزت مع الأفكار المميته المستعارة من الغرب التي تخلق بدورها العقلية الاستسهالية، وتعيق القدرة التحليلية في فهم المشكلات المعقدة للأمم، فتقتل الإبداع بما لها من قدرة على الإخماد وتقييد العقول، إلا أنه أكد أن الأفكار الميتة التي خلفها لنا مجتمع ما بعد الموحدين تبدو أشد ضرراً، فهي نفسها الأفكار التي قضت على هذا المجتمع، وتخلفت من عصر نهضة المجتمع الإسلامي. وحتى إذا قمنا بمحاولة لمعالجة هذه الأفكار - التي لم يعد لها جذور في الثقافة الأصيلة للعالم الإسلامي - تواجهنا الأفكار المميته الوافدة

إلى عالمنا مخلفة جذورا يصل امتدادها إلى عمق عالمها الثقافي الأصلي، وذلك لأن فكر ما بعد الموحدين هو الذي ينضج الأفكار الميئة من جهة، ويمتص الأفكار المميئة من جهة أخرى.

ويرى ابن نبي أننا غالبا ما نجد الفرد المسلم نفسه هو المثال الحي لهذه المشكلة، حيث تستدعي الفكرة الميئة التي يحملها بداخله الفكرة المميئة التي تلقاها مجتمعه، وتطرح ظاهرة الترابط المزدوجة هذه في وجهها الثاني مشكلة أخرى لا ترتبط بمسألة وجود الأفكار المميئة في الثقافة الغربية في حد ذاتها؛ بقدر ما ترتبط بالسبب الذي يدفع النخبة في عالمنا الإسلامي إلى البحث في هذه العناصر في ثقافة الغرب، في الوقت الذي لا يعتبر فيه العالم الثقافي الغربي كله مميئا، هذا الواقع الذي لا يزال يبعث الحياة في حضارة تنظم حتى الآن مصير العالم. فليس العنصر المميئ الذي نصادفه في ذلك الوسط إلا نوعا من النفايات (كما عبر عنها ابن نبي) التي تمثل الجزء المميئ من تلك الحضارة. (ابن نبي، 2016 ب: 149-150)

هذا الطرح هو الذي قاد ابن نبي إلى البحث في مضمون الوعي في عالم ما بعد الموحدين، الذي جعل النخبة المسلمة - بإرادة منها أو بغير إرادة - تتجه إلى التقاط تلك النفايات التي تزداد خطورتها بعد اختلاطها بثقافة المجتمع الذي يمتصها، فإذا كانت هذه الأفكار المستوردة هي أيضا أفكارا مميئة في مجتمعها الأصلي، فإنها سوف تلعب الدور نفسه في عالمنا، وستعطي النتائج نفسها؛ خاصة على الصعيد الاجتماعي، ولهذا أكد على وجود عناصر أخرى في حضارة الغرب تمثل أجزاءها السليمة، وهي التي تمنحها القوة والاستمرارية رغم كل شيء.

وفي هذا الإطار أجرى ابن نبي مقارنة بين فئتين متميزتين أطلق عليهما «تلاميذ الثقافة الغربية» وهما المجتمع الإسلامي والمجتمع الياباني؛ حيث كانت انطلاقتاهما متزامنتين وتتلماذا حسب رأيه معا منذ عام 1860 في مدرسة الثقافة الغربية، وكانت محصلة هذه المقارنة أننا اليوم نشهد اليابان كواحد من أقوى القوى الاقتصادية الموجودة في العالم؛ في الوقت الذي لم يعد فيه المجتمع الإسلامي سوى نموذجا لمجتمع متخلف، وذلك بالرغم من الجهود الكثيرة التي خصت به تحت شعار " النهضة ". وقد أرجع ابن نبي ذلك لكون اليابان رغم تتلمذه على يد الثقافة الغربية بقي وفيها لثقافته ولتقاليدته ولماضييه، ولم يترك الأفكار المميئة الموجودة بها تصرفه عن طريقه؛ في الوقت الذي اتجهت فيه النخبة في عالمنا الإسلامي للبحث في نفايات الحضارة بدلا من الاستفادة من منابعها. (ابن نبي، 2016 ب: 151-152)

فتواجد الاستعمار على الساحة لم يعد ضروريا في هذه الدول مادامت غارقة في جهلها، كما أن وجوده يكون بصور مختلفة في الدول التي تحاول أن تستيقظ من سباتها العميق، فأول ما يحاربه في مجتمعاتها هو "الفكرة المجسدة"، من خلال الوقوف في وجه أي مجهود فكري أو علمي تقوم به القوى الواعية في المجتمع لإيقاظ الشعوب، غير أن الخطر الكبير بالنسبة للمستعمر هو تحول الفكرة المجسدة إلى " فكرة مجردة " مستقرة في ضمير الشعب خوفا من أن يتنادى للدفاع عنها. (ويس، 2010: 275، <http://www.iasj.net/iasj>)

وبهذا فإن الاستعمار يقوم بتوجيه كل جهوده لمواجهة الوعي والنهوض في هذه البلدان، فهدفه الأساسي هو تحطيم كل إرادة أو شبه إرادة تدفع الإنسان المستعمر إلى التقدم والحضارة، ويكون ذلك

باتباع برنامج يتضمن كل ما يتطلبه هذا التخطيط المعنوي من تلوين أخلاقي يحط من قيمة الفرد وشخصيته ومن كفاءته وجهده، وهنا يبدأ الصراع الفكري على حقيقته. (ابن نبي، 2002 ب: 43)

حيث يرى ابن نبي أن محور الصراع في كل معركة حضارية هو الفكرة، فاخترت مشكلة العالم الإسلامي في هذه الكلمة، فهذه البلاد حسب رأيه تجهل عموماً قيمة الفكرة في تحديد مصير مجتمعاتها، كما تجهل دقة الخطط التي ترسم من أجل التحكم في مستقبل الشعوب المتخلفة من خلال التحكم في أفكارها، وهو ما تضمنه مؤلفه "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، الذي يلقي فيه الضوء على كل الألاعيب التي يمارسها المستعمر - رغم غيابه - في احتواء المشهد الحياتي لكل من هم تحت قبضته، وبهذا يحقق وجوده في وجدانهم وأفعالهم، من خلال خلق الأفكار التي تخدم مصالحه وتغذيتها وتعبئتها في وعي الجماهير؛ حيث تعيش مجتمعاتنا تلقائياً نتائج السلبية في حياتها، وتمهد له دون معرفة لمقتضياته وأسلوبه ووسائله وأهدافه. (ابن نبي، 2016 أ: 32-33)

فالصراع الفكري في هذه البلاد حسب رأي ابن نبي يمكن أن تجري عليه قاعدة الشيء المركب من أشياء، وأنها إذا قمنا بإجراء عملية بسيطة من أجل تحليل تركيبته لوجدناه مكوناً من عناصر تعود للاستعمار وعناصر تعود للقابلية للاستعمار. (بن نبي، 2002 أ: 197-198)

## 2-2 القابلية للاستعمار والاستعمار

اشتهر مفهوم القابلية للاستعمار شهرة بالغة واستخدم لدعم توجهات متناقضة، ولكن قلما تتم العودة إلى الاستعمال الأصلي له عند مبتكر هذا المفهوم مالك بن نبي، فالقابلية للاستعمار في منظوره هي معامل يجعل الفرد يستبطن مفاهيم المستعمر عنه ويقبل بالحدود التي رسمها المستعمر لشخصيته، ليس ذلك فحسب بل ويدافع عنها، وهذا المعامل ينبعث من باطن الفرد ذاته، فيجعله يقبل على نفسه أن يحمل تلك الصبغة وأن يسير في تلك الحدود الضيقة التي رسمها الاستعمار له وحدد فيها حركاته وأفكاره وحياته. (ابن نبي، 1948/1986: 205)

وقد استخدم ابن نبي هذا المفهوم لأول مرة في كتابه "شروط النهضة"، ولكنه تناوله في أبحاثه ومؤلفاته الأخرى كصفة لمجتمع ما بعد الحضارة، والذي يقابله عند المسلمين مجتمع ما بعد الموحدين؛ فهو الوضع المنهار للحضارة في نهاية الدورة الحضارية ويمثل المجتمع الإسلامي الآن (شاويش، 2007: 33)، وعبر عن ذلك في كتابه "الصراع الفكري" بقوله: "إن الاستعمار قد جاء إلى العالم الإسلامي نتيجة مرض أساسي عندنا، هو القابلية للاستعمار... وهو نتيجة الصراع الفكري الذي خطط له الاستعمار وأحسن إحكام الخطة...." (المسلماني، <http://www.almasryalyoum.com/news/details/207110:05/09/2011>)

فالقابلية للاستعمار هذه هي جملة الخواص الاجتماعية التي تسهل سيطرة الغزاة واستمرار الوضع المنحل للحضارة (شاويش، 2007: 34)، وحسب منظور ابن نبي فإن هذه الصفة لا تقتصر على وصف المجتمع الذي تعرض للاستعمار، بل تشمل مجتمعات أخرى لها قابلية للاستعمار على الرغم من عدم تعرضها له، وقد تناول ذلك في كتابه "وجهة العالم الإسلامي" بقوله: "بهذا نفهم الاستعمار باعتباره (ضرورة تاريخية) فيجب أن تحدث هنا تفرقة أساسية بين بلد مغزو محتل وبلد

مستعمر. ففي الحالة الأولى يوجد تركيب سابق للإنسان، والتراب، والوقت وهو يخلق فردا غير قابل للاستعمار. أما الحالة الأخرى فإن جميع الظروف الاجتماعية التي تحيط بالفرد تجعل لديه قابلية للاستعمار، وهنا يصبح الاستعمار قدرا محتوما ... (دن، د ت: <http://bahrainonline.org/showthread.php?t=89687>)، وقد أعطى ابن نبي مثالا عن هذه الرؤية حين تحدث عن المجتمع الألماني الذي رغم خضوعه للاحتلال من طرف الحلفاء، إلا أنه مجتمع غير قابل للاستعمار، وفي المقابل يعطي مثالا بالمجتمع اليمني الذي يحمل هذه الصفة بالرغم من عدم تعرضه للاستعمار.

فكانت رؤيته هذه سابقة لعهدا على عكس الفكر السياسي السائد الذي جعل من الاستعمار السبب الرئيس لكل مشكلات المجتمعات المتخلفة؛ وكان هذا المفهوم عبارة عن دعوة للمجتمعات المستعمرة عامة والمسلمة بصفة خاصة للنهوض والتركيز على عيوب التركيبة الاجتماعية التي تتسبب في ضعف المجتمع وعدم صموده أمام أي تحد خارجي. وقد أثبتت هذه الفكرة صحتها بعد تحرر غالبية البلدان في العالم الإسلامي، حيث استمرت مظاهر التخلف والانحلال في جميع المجالات، بل وتفاقت التبعية للغرب في كل شيء حتى في الغذاء؛ وذلك بالرغم من جميع المحاولات والجهود التي بذلت لإعادة مجدها القديم والتي باءت بالفشل؛ سيما إذا ما تمّ مقارنتها بمجتمعات أخرى كاليابان والصين الشعبية التي كانت متأخرة عنها بكثير. فالعرب والمسلمون في رأيه قد واجهوا الاستعمار على مختلف مسمياته بشكل مشرف، ولكن مشكلتهم أنهم لم يدرسوا أسباب وعوامل وجوده على أرضهم والوسائل الواجب تأمينها كشرط للتخلص منه. (شاويش، 2007: ص ص 35-36)

كما أكد ابن نبي أن وجود الاستعمار على الساحة في هذه الدول لم يعد ضروريا مادامت هذه الأخيرة لا تزال غارقة في جهلها، ووجوده يكون بصور مختلفة في الدول التي تحاول أن تستيقظ من نومها، وأول ما يحاربه في مجتمعاتها هو " الفكرة المجسدة " من خلال الوقوف في وجه أي مجهود فكري أو علمي تقوم به الفئة الواعية في المجتمع لإيقاظ هذه الشعوب، غير أن الخطر الكبير بالنسبة للمستعمر هو تحول الفكرة المجسدة إلى " فكرة مجردة " مستقرة في ضمير الشعب (ويس، 2010:275، <http://www.iasj.net/iasj>)

وبهذا فإن الاستعمار يقوم بتوجيه كل جهوده لمواجهة الوعي والنهوض في هذه البلدان، وهدفه الأساسي هو تحطيم كل إرادة أو شبه إرادة تدفع الإنسان المستعمر إلى التقدم والحضارة، وذلك من خلال اتباع برنامج يتضمن كل ما يتطلبه هذا التحطيم المعنوي من تلوين أخلاقي يحط من قيمة الفرد وشخصيته ومن كفاءته. (بن نبي، 2002 ب: 43)

إضافة إلى ذلك فقد أكد ابن نبي على أن الاستعمار ليس من صنع الحكام والسياسيين فحسب؛ كونهم هم أنفسهم نتاج للمجتمع وهم انعكاس لحاله، فإذا كان هذا المجتمع يتصف بالقابلية للاستعمار، فلا بد أن يكون هؤلاء الحكام والسياسيون أدوات له. كما اعتبر أن الاستعمار في هذه البلاد ينطلق من النفس ذاتها التي تقبل ذله وتمهد له، ولا يمكن لأي مجتمع التحرر من الاستعمار وعملائه إلا إذا حرر نفسه من العوامل التي تؤهله للاستعمار، من خلال تحول نفسي يصبح معه الفرد مع تقادم الزمن قادرا على القيام بواجباته الاجتماعية والوطنية معتزا بذاته، حينها



فقط يتحرر من طابع القابلية للاستعمار، وبتغيير نفسه يتغير تلقائياً وضع حاكميه. (ويس، 270-2010:269، <http://www.iasj.net/iasj>)

فالقضية عند ابن نبي متعلقة بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته من حيث نشعر أو لا نشعر، هذا الاستعمار الذي درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة حتى أصبح يتصرف في بعض مواقفنا الوطنية وحتى الدينية (ابن نبي، 1948/1986: ص 208)، وبهذا فهو يلخص رؤيته للحل في كتابه " بين الرشاد والتيه " بقوله: " يجب تصفية الاستعمار في العقول قبل كل شيء. فتصفيه الاستعمار من العقول تتطلب أشياء كثيرة يتضمنها مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة، فهي لا تتحقق إذن بمجرد انسحاب جيوش الاستعمار ومجرد إعلان الاستقلال وتحرير الدستور...

( المسلماني، 207110، 05/09/2011، <http://www.almasryalyoum.com/news/details/207110>)

وبذلك فقد اختصر نصف مشكلة الاستعمار من خلال إلقاء الضوء على العيوب الداخلية في بنية المجتمعات التي خضعت للاستعمار بعد أن كان التركيز ينصب أساساً على الدور الذي قامت به القوى الاستعمارية في صناعة التخلف ( د ن، 06/12/2012:

<http://www.binnabi.net/infos/detail/9FDiY1Y11Yo781020ok%D9%81%D9%81-%D8...>

والنهضة في نظره هي مسألة داخلية أساساً، ومن هنا فهو يقدم مبدأ القيام بالواجبات على مبدأ المطالبة بالحقوق، فقابليتنا للاستعمار في رأيه تعود لكوننا متقاعسين عن القيام بواجباتنا لبناء المجتمع المثالي القوي والقادر على الدفاع عن حقوقه، وعض ذلك نقوم برفع شعارات كبيرة للمطالبة بالحقوق. فالغرب هنا لا يمانع في تمحور سياستنا حول مبدأ المطالبة بالحقوق؛ طالما لا توجد هناك مساعي جادة لتغيير وضعنا الاجتماعي والقيام بالنهضة المطلوبة. فما كانت غاية ابن نبي من هذا المفهوم (أي القابلية للاستعمار) سوى حث المسلمين على الكف من الكسل والخمول والتعاس العقلي والجسدي، وكانت وصيته الأهم هي تركيز الجهود على القيام بالواجبات وعدم الاكتفاء بانتظار الحصول على الحقوق والمطالبة بها. (شاويش، 2007: 36-38)

### 3) السبيل إلى نهضة العالم الإسلامي

انطلق مالك بن نبي من فكرة محورية هي أن نهضة أي مجتمع تتم في نفس ظروف ميلاده، فللتاريخ دورة، وحتى تأخذ أمة بأسباب النهضة عليها أولاً أن تحدد مكانها من دورة التاريخ، وتقوم بحل مشكلة الحضارة، فالأمر هنا يتعلق بمشكلة كلية هي مشكلة الحضارة التي يتطلب حلها المرور عبر حل المشكلات المتصلة بالعناصر الأولية للحضارة التي تشكل الرأسمال الأولي لها، وينبغي حينها مواجهة هذه المشكلات في إطارها الجزئي ارتباطاً مع الإطار الذي ينظمها.

ومشكلة الانحطاط في العالم الإسلامي تتلخص في ثلاث مشكلات أولية هي: مشكلة الإنسان ومشكلة التراب ومشكلة الوقت، ولا بد لهذه المحاور من إطار جامع يعيد تركيبها لتنصهر فيه، وهنا نرجع إلى الفكرة الدينية التي رافقت دائماً تركيب الحضارة على مرّ التاريخ، فحسب منظور ابن نبي فإن المسألة الحضارية لا بد أن تؤخذ بالتحليل للوصول إلى البحث في الوحدات الأساسية للمشكلة الكلية، ولهذا فهو ينطلق من الزاوية التحليلية في صيغة أولية مجردة تأخذ العناصر الأساسية التي تشكل الظاهرة الحضارية ( بن الحسن، 1999-2000: 70-71)، والسبيل الوحيد إذاً لإعادة بناء المجتمع

المسلم الحديث هو إيجاد حلول لهذه المشكلات الثلاث، والذي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال إعادة بعث الفكرة الدينية كأساس لأي تغيير اجتماعي؛ وفقا لما تنص عليه الآية الكريمة. قال الله تعالى: " ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ... " سورة الرعد الآية 11.

فجوهر الإصلاح عند ابن نبي هو تغيير نفوس الشعوب وتخليصها من موروث الاستعباد والقابلية له، وإعادة إحيائها من جديد حتى تتفاعل مع معطيات الحضارة الأساسية (يوسف، 04/11/2017: 42 http://www.minbarlibya.com/?p=6385)، انطلاقا من تحرير الإنسان المسلم من عقدة النقص والانبهار بثقافة الغرب، وكذلك بتخليصه من سيطرة فكرة القابلية للاستعمار التي تتخلل عالمه الداخلي حتى تنطلق طاقته لتصفيته من عالمه الخارجي، ثم إعادة ربطه بعقيدته وسلوكه وعمله من خلال تحديد إطاره الحضاري الذي يكون في مجال ثقافته النابعة من تعاليم دينه.

فقد كانت المحاولات الكثيرة للإصلاحيين في العالم الإسلامي محدودة نوعا ما؛ خاصة إذا ما قورنت بجهود مجتمعات أخرى، ومن هنا يمكن أن نلمس السلبية النسبية لهذه الشعوب التي تصدرها نقص الفاعلية في المجتمع. فليس من المنطقي أن ننشئ حضارة من خلال شراء كل منتجات الحضارات الأخرى، وحتى إذا تم ذلك سينتهي بنا الأمر إلى ما أطلق عليه ابن نبي تسمية " الحضارة الشبئية " وهو ما يعكسه الوضع العام للعالم الإسلامي حاليا، فنحن ومنذ أكثر من نصف قرن نعمل على جمع منتجات الحضارة أكثر من أن نسعى إلى بناء حضارة. (مسقاوي، 2013: 144 – 145)

وبذلك فإن التغيير الحقيقي لا بد وأن ينطلق من النفس، وبه تتوازن وتستوي شخصية الإنسان، فتحصن وجودها من استهداف المستعمر لها الذي يسعى إلى إفقادها الفاعلية وروح التقدم والطموح تمهيدا لتحويلها إلى " كمّ " مهمل؛ وهذا التغيير ما هو إلا تمهيد لعملية النهضة من خلال القيام بخطوات إصلاحية قبل تحقيق فكرة الإقلاع الحضاري، والقاعدة الصلبة التي يضعها ابن نبي لعملية النهضة والإقلاع هي الإسلام، فهذا الدين هو الإطار الحضاري للعالم العربي والإسلامي، وإن عملية البناء الحضاري من خلاله تنطلق من إعادة تركيب المجتمع، وإعادة بناء إنسان جديد تتحدد سماته وخصائصه بتجاوز إنسان الانحطاط والعودة إلى الإنسان المسلم في أصالته الأولى.

إن طابع أنسنة الإنسان واجتماعية المجتمع تصنع في المجتمع المسلم البذرة الدينية أو حسب لغة ابن نبي البذرة القرآنية التي إذا وهنت تراجعت نهضة المسلمين، لذلك بات لزاما إعادة بعث هذه البذرة في نفس الإنسان المسلم، حيث اعتبر ابن نبي أن الإسلام هو جوهر عملية إعادة البناء الاجتماعي وهو الموجه الأساسي لها؛ كونه عملية دافعية تشريعية في إحداث التحولات الحضارية وما تتطلبه من إعادة بناء الإنسان كأساس لإعادة البناء الحضاري، وتفادي استيراد وتكديس النماذج والتجارب الغربية والبعد عن الحلول أحادية البعد. (القريشي، 1405: 27)

وقد أقر ابن نبي أن الفكرة الدينية التي يتضمنها الإسلام تشترط سلوكا لدى الإنسان يكون من خلاله قادرا على أداء الرسالة، ودوره هنا لا يتوقف على إعادة بناء الحضارة فقط؛ وإنما العمل كذلك على استمرار هذه الحضارة وحمايتها من عوامل الانهيار والأفول. فالبناء الحضاري هو امتداد لأبعاد كثيرة ومختلفة إنسانية ونفسية واجتماعية وأخلاقية وجمالية، وهذه الأبعاد كلها ذات طابع روحي

يكن وراءها، فيحرك التجديد الحضاري، ويضع الإنسان في التاريخ ليتمكن من بناء حضارته والمحافظة على استمرارها، فيحقق بذلك وجوده الإنساني بتحقيق غاياته القريبة والبعيدة، وهي التي تعكس غايات الدين الإسلامي. (جيلالي، 2010: 89-90)

### خاتمة ونتائج الدراسة

تعدّ الطروحات الفكرية التي قدمها مالك بن نبي من أكثر الطروحات تأثيراً وإسهاماً في رسم ملامح الفكر الإسلامي الحديث، خاصة وأنها ركزت على دراسة وتحليل مشكلات الأمة الإسلامية انطلاقاً من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة الأبعاد، وقد كانت جهوده في هذا المجال هي الأكثر تميزاً في التنظير الفكري للنهضة الإسلامية في العصر الحديث، سواء من حيث الإشكاليات التي طرحها أو من حيث المناهج التي اعتمدها، فكان بذلك السبّاق في تحديد الأبعاد الحقيقية للمشكلة واقتراح العناصر الممكنة للإصلاح، كما كان أول من وضع منهجاً محدداً في بحث مشكلة المسلمين على أساس من علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ، وشكل مفهومه عن الحضارة وعن طبيعة المجتمع المتحضر وعلاقة الدين بالحضارة موضوع جدال بينه وبين عديد المفكرين. حيث توصل بفكره إلى أن المشكلة المحورية في العالم الإسلامي هي مشكلة حضارة، بل وذهب إلى أبعد من ذلك حين أكد أن السبيل الوحيد إلى إعادة بعث حضارة المسلمين وإيقاظها من سباتها العميق هو إقامة دولة المجتمع الإسلامي، على اعتبار أن الدين كان دائماً وعلى مرّ التاريخ بمثابة المركب الحضاري.

فقد طرح وعالج مالك بن نبي إشكالية الحضارة من منطلق لم يسبقه إليه أحد من المفكرين، وكان في ذلك مدركا لأهمية فكره الإصلاحي التقدمي، وأن أفكاره ستطرح مجدداً بعد جيل كامل من رحيله، أي بعد خمسة وعشرين عاماً، انطلاقاً من العودة والرجوع إلى تراثه الفكري الذي لم يكن بالأهمية البالغة التي هو عليها اليوم، حيث ظلّ لسنوات عديدة مهملاً في رفوف المكتبات، وقد حان الوقت لأن تلتفت أنظار الأمة إليه وأن تطرحه على طاولات النقاش والبحث إذا ما أرادت أن تعيد بناء حضارتها.

### التعليقات والشروح

#### التعليق رقم 01

معركة صفين: هي معركة حدثت في السنة 37 للهجرة بين جيشي معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما بسبب خلاف بينهما حول قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، فمعاوية وأصحابه كانوا يطالبون بدم عثمان والاقتصاص من قتلته، وعلي كان يطالبهم بالبيعة له أولاً؛ حتى تجتمع الكلمة على إمام واحد، ثم تبحث قضية مقتل عثمان بن عفان، وقد كانت هذه المعركة مرحلة مؤلمة في تاريخ الأمة الإسلامية خاصة وأن أبطالها المتصارعين هم من خيرة الصحابة، كما كانت إيذاناً بقرب انتهاء عهد الخلافة الراشدة، بعد حصول الفتنة بين المسلمين وانشقاق صفوفهم وظهور الخوارج.

